ذات الرؤوس

بقلم الدكتور طه حسين بك

هي وزارتنا الرائعة البارعة ، كانت لها رؤوس ثلاثة إلى أمس فنقل منها مجلس الأمن رأساً ليضعه فى محكمة العدل الدولية وعادت الوزارة ذات رأسين بعد أن كانت ذات رؤوس ثلاثة وقد تبقى ذات رأسين اثنين وقد يضاف إليهما رأس ثالث مكان الرأس الذي نقل إلى لاهاى ، يختلف ذلك باختلاف الوزير الذي سيختار لوزارة الخارجية أن أتيح لهذه الوزارة أن تبقى وأن تعدل وأن يختار للخارجية فيها وزير جديد .

والقراء يعرفون بالطبع قصة ذلك الكائن الخرافى الغريب الذي كان يحمل رؤوساً سبعة لا يكاد عدوه يقطع منها رأساً إلا نبت مكانه رأس آخر ، ولكن عدواً من أعدائه عرف مقتله فقضى عليه . وكان من الممكن أن تكون وزارتنا كذلك الكائن لها رؤوس بمقدار من فيها من الوزراء ولكن ثلاثة من وزرائنا ليس غير استطاعوا أن يكونوا رؤوساً وأدرك الخمول أو التواضع سائرهم فقنعوا بأن يظلوا أعضاء يعملون في المرافق المختلفة لهذه الأمة السعيدة بهذا العهد السعيد . فأما الرؤوس الثلاثة فمعروفون أحدهم رئيس الوزراء والرئيس مشتق من الرأس فهو رأس بطبعه وإن كان كغيره من رؤوس الوزارات المصرية يعمل رأساً ويداً ، فهو رأس للوزارة حين يجلس في مكتبه برئاسة مجلس الوزراء وهو يد للوزارة حين يجلس في مكتبه بوزارة الداخلية . أو قل أنه يدان يد يمنى حين يذهب إلى وزارة الداخلية ويد يسرى حين ينوب عن وزير الخارجية أثناء غيابه في لندرة وقد كان يداً ثالثة بين اليمين واليسار وقتاً ما حين ذهب وزير العلم والعرفان إلى السودان .

أما الرأس الثاني لهذه الوزارة فهو هذا الذى اقتطع منها أمس ونقل مما بين كتفيها إلى كرسى من كراسي محاكم العدل . فقد كان رأساً أى رأس كان رأساً مرفوعاً في القارات الثلاث في أفريقيا حين كان يختلف إلى مكتبه بمصر وفي أمريكا حين كان يرأس وفدنا في سان فرنسسكو وفى أوربا حين كان يرأس وفدنا في لندرة . وقد كاد أن يكون رأساً في قارة رابعة حين ذهب إلى الحجاز مؤدياً فريضة الحج لولا أن الوزارة استعارت يداً من أيديها فجعلتها رأساً من رؤوسها وقتاً ما حين كان وزير الصحة أميراً للحج . مهما يكن من شيء فقد كان وزير خارجيتنا رأساً ثانياً من رؤوس الوزارة له الخطر كل الخطر وبه معقد الأمل كل الأمل ، أمل مصر أولاً وأمل البلاد العربية ثانياً ، وأمل البلاد الإسلامية بعد ذلك فقد انتخب فى مجلس الأمن ولم تنتخب فيه تركيا ولا إيران . وهو قد حقق هذه الآمال كلها على أحسن وجه وأكمله ، وما كان ينبغي له أن يفعل غير ذلك فهو فقيه متعمق للفقه ، وهو قاض متمكن فى القضاء ، وهو سياسي ممتاز في السياسة ، وهو من أجل ذلك يأتى البيوت من أبوابها ولا يأتي البيوت من ظهورها وهو من أجل ذلك يفتح الأبواب فيحسن فتحها ويغلق الأبواب فيحسن تغليقها

، وقد أغلق باب مجلس الأمن فى وجه مصر وفى وجه البلاد العربية الأخرى . فأما مصر فقبلت حكمه ونزلت عند رأيه ووقفت أمام الباب المغلق ترمقه مستخذية وتنظر إليه متهالكة ترفع رأسها لتفضه وتفض رأسها لترفعه أو قل إنها ترفع رأساً وتفض رأساً فقد كان لها في ذلك الوقت رأسان فى مصر يرتفع أحدهما في رئاسة الوزراء ، فينخفض الآخر في حزب الكتلة ويرتفع أحدهما في دار مكرم باشا فينخفض الآخر في رئاسة الوزارة والشعب المصرى واقف موقف النظارة يعجب بهذين الرأسين اللذين لا يرتفع أحدهما إلا انخفض أحدهما الآخر . والشيء المهم هو أن رأس وزارتنا الثالث قد غلق أبواب مجلس الأمن فأحسن تغليقها فمصر وغيرها من البلاد العربية أهون شأناً من أن تهدد السلم وإذن فلن ينظر مجلس الأمن فى شؤونها ومصر وغيرها من البلاد العربية لا تشكو من شيء أعقبته الحرب وإنما تشكو من عاهات مستديمة وعلل مقيمة نشأت قبل أن تشب الحرب وإذن فلن ينظر مجلس الأمن فى شؤونها وقد جعل رأس من رؤوس الوزارة المصرية يملأ الأرض ضجيجاً وعجيجاً وبكاء محتجاً على تغليق الأبواب وجعل الرأس الآخر يملأ الجو ثناء ودعاء رضى بتغليق الأبواب وجعل الرأسان يختصمان وإن حملهما جسم واحد وجعل أعضاء هذا الجسم يستجيبون لهذا الرأس مرة فيصيحون وينوحون ويستجيبون لذلك الرأس مرة فيحمدون ويشكرون فأما البلاد العربية الأخرى فقد هزت رؤوسها ورفعت أكتافها وأعرضت عن الوزارة المصرية ورؤوسها الثلاثة وحطمت الأقفال واقتحمت الأبواب وعرضت على مجلس الأمن شؤون سوريا ولبنان ، ثم قررت أن تعرض على مجلس الأمن شؤون فلسطين وأثبتت بذلك أن جماعة الأمم العربية متضامنة كل التضامن وأن مصر تنوب عنها فتحسن النيابة فى مجلس الأمن وأن الأمور تجرى في هذا الجزء من ساحل البحر الأبيض المتوسط على خير ما تجرى عليه الأمور ..

وعلى كل حال فقد عرفنا لوزارتنا رأسين بارزين يعملان فيحسنان العمل ويقولان فيحسنان القول أحدهما يملأ مصر حزماً وعزماً وسلاماً وأمناً يعلن في مجلس الشيوخ مثلاً أنه يحفظ الأمن فيحسن حفظه وفى نفس الوقت الذى كان يعلن فيه ذلك كانت عصابة من المجرمين تغير على قطار قريباً من القاهرة فتثخن حفظة البريد جراحاً وتشد وثاقهم وتأخذ ما تستطيع أخذه من المال وتنصرف موفورة لم تلق كيداً لأن رأساً من رؤوس الوزارة المصرية أو لأن الرأس الأول من رؤوس الوزارة المصرية قد ملأ مصر حزماً وعزماً وسلاماً وأمناً وأعلن ذلك في مجلس الشيوخ .

وعرف المصريون رأساً ثانياً من رؤوس وزارتنا قد قال فى لندرة فأحسن القول وعمل فيها فأحسن العمل . شرف مصر بين الأمم فانتخبت فى مجلس الأمن وأضعف التضامن بين الأمم العربية فذهب فى ناحية وذهبت الأمم العربية في ناحية أخرى وعرف العالم كله له هذا الفضل وهذا التفوق فانتخبه قاضياً في محكمة العدل .

فأما الرأس الثالث من رؤوس وزارتنا فأمره عجب أى عجب هو الرأس الذي يحسن التنغيص على الرأسين الآخرين وعلى أعضاء الوزارة يصيح فى غير أبان الصياح حتى إذا نغص على أصحابه يومهم وأرق عليهم نومهم وأقض عليهم مضاجعهم سكت فجأة كأنه لم يأت حركة ولم يرفع صوتاً كل همه أن يملأ الأرض صياحاً وليس من همه أن يعمل شيئاً يقدم ليحجم ، ويهجم لينهزم ويحتج ليستكين لا يريد إقداماً ولا هجوماً ولا احتجاجاً وإنما يريد تنغيصاً وتأريقاً وإقلاقاً ، هو رأس نشيط لا يستطيع أن يستريح ولا يريد أن يريح .

له في كل يوم استقالة وله في كل يوم عدول عن الاستقالة وهو قد تحدث باسم الوزارة . كان رأسها الأول كان متعباً يوم الثلاثاء وكان رأسها الآخر غائباً في لندرة فتحدث نائباً عن الرأسين أو مستبداً بأمر الرأسين . ولست أدرى أرضى الرأسان عما قال طوعاً واختياراً أم قسراً وقهراً . فأما الرأس الغائب فلم يرض ولم يسخط لأنه لم يسمع مما قيل شيئاً . فأما الرأس الحاضر فقد كان يود في أكبر الظن أن يخرج بالصمت من لا ونعم لأنه يؤثر الصمت ويهواه ولكن الماكرين من الشيوخ سألوه فأحرجوه ، سألوه أيقر ما قال الرأس الثاني ولم يكن يستطيع إلا أن يجيب نعم . وهل كان يستطيع أن يقول أنه لا يتشدد في الجلاء الكامل عن بر مصر وجوها وبحرها . وهل كان يستطيع أن يقول أنه سيستفتي سكان السودان فى أمر السودان . ورأسه المكرمى يقيد الحكومة أشد التقييد فيعلن أن الحكومة لا ترضى بأقل من الجلاء الكامل عن البر والبحر والجو ولا تقبل استفتاء في السودان مهما تكن الظروف .

كان رئيس الوزراء يستطيع أن ينكر شيئاً من ذلك أشهد لقد انتصر الرأس المكرمي على الرأسين الآخرين انتصاراً مؤزرا فى مجلس الشيوخ ، فقد أنكر الرأس النقراشى الأول وزير الخارجية كل الأنكار وأعلن أن الحكومة المصرية ترى من حقها أن تعرض قصتها على مجلس الأمن إذا لم تتفق فيها مع الإنجليز ، ثم أعلن أنه يقر الرأس المكرمي على ما قال من المطالبة بالجلاء كاملاً شاملاً ومن رفض الاستفتاء مهما تكن الظروف .

ومع ذلك فقد نصت المذكرة المصرية على أن وزارتنا تريد أن تفاوض في مسألة السودان مستوحية أمانى السودانيين . فمن أين تستوحى هذه الأماني من السودانيين أنفسهم فهو الاستفتاء وقد قال الرأس المكرمى غير الحق من غير السودانيين فهي لا تستوحى شيئاً وقد قال الرأس النقراشى للإنجليز غير الحق . وإذن فالسفينة التي يقودها ربانان مضطرة إلى الغرق والجسم الذى ركب بين كتفيه رؤوس ثلاثة لا يستطيع أن يعيش إلا في عالم الأساطير والأعاجيب . ومصر جزء من عالم الأساطير والأعاجيب منذ أقدم العصور .

ولكن أعجوبتنا المصرية الحديثة الرائعة وهى الوزارة ذات الرؤوس الثلاثة لا تمتاز برؤوسها هذه المثلثة وحدها ، بل تمتاز بشيء آخر لست أدرى أين أضعه من جسمها العجيب

أضعه موضع الذنب ، فتكون وزارة مذنبة ، أم أضعه موضع الأنف فتكون وزارة ذات أنف ممتاز . وقد قال شاعرنا القديم :

قوم هم الأنف والأذناب دونهمو - ومن يساوى بأنف الناقة الذنبا

فأين تحب الهيئة السياسية أن تضع نفسها من هذا الجسم الوزاري العجيب؟ أما هي فتريد أن تكون أنفاً أو أنوفاً ولست أكره لها ذلك وإن لم يرض البرلمان ، وإن لم يرض الدستور ، وأما الوزارة فتريد أن تضعها موضع الذنب ، وإن ضاقت بذلك كرامتها . ولم يرض به مركز أعضائها الممتاز مهما يكن من شيء فلتضع الهيئة السياسية نفسها حيث شاءت ولتضعها الوزارة حيث شاءت وربما كان خير الحلول أن تكون أنفاً حين يجد الجد وتتحرج الأمور ، وأن تكون ذنباً حين يحاس الحيس وحين تجرى الريح رخاء .

والشيء الذي لا أشك فيه ولا يشك فيه أحد هو أن صدقى باشا غاضب . كان يريد أن تكون الهيئة السياسية أنفاً كما كانت فى شهر سبتمبر وفى شهر ديسمبر ولكن الوزارة جعلتها ذنباً بعد أن جاء الرد لبريطاني فلم تدعها إلى الآن لسبب غير مفهوم كما يقول صدقى باشا في الأهرام صباح اليوم . وغضب صدقى باشا يخيف أحياناً ولا يخيف أحياناً أخرى ، على أنه ليس غاضباً للهيئة السياسية وحدها بل هو غاضب لمجلس النواب أيضاً ، فقد أجلت مناقشة المفاوضات إلى وقت بعيد في مجلس النواب وصدقي باشا غاضب على الحكومة التي تقبل المحادثات مع أن الأمر لا ينبغي أن يقبل فيه إلا المفاوضات والقارئ الذكى يفهم أن المفاوضات شيء تؤلف له الوفود التي تذهب إلى لندرة والتي يمكن أن يكون فيها صدقى باشا وأن تكون الهيئة السياسية فيها أنفاً أما المحادثات فشيء تستأثر به الوزارة ولا يشارك فيه صدقى باشا ولا تكون الهيئة السياسية فيه إلا ذنباً وإذن فصدقى باشا غاضب والسؤال الخطير الآن هو : هل تخاف الحكومة من غضب صدقي باشا فترضيه وتغضب الإنجليز برفض المحادثات أم تسخر الحكومة من غضب صدقى باشا هذه المرة فتسوؤه وترضى الإنجليز بقبول المحادثات؟

وهناك حل بديع فيما أعتقد : . يريح الناس جميعاً . فقد قطع مجلس الأمن أمس رأساً من رؤوس الوزارة ، فأى بأس على الوزارة من أن تقطع الذنب إن كانت الهيئة السياسية ذنباً ؟ وما أكثر الوزارات التي تعيش ولا أذناب لها ، ومن أن تجدع الأنف إن كانت الهيئة السياسية آنفاً ، وما أكثر الوزارات التى تعيش وأنوفها مجدوعة .

كل شيء يمكن ، قد استطاعت وزارتنا أن تعيش برؤوس ثلاثة وهي الآن تعيش برأسين اثنين ، فما يمنعها أن تعيش بغير ذنب ، وما يمنعها أن تعيش بغير أنف ، بل ما يمنعها أن تعيش بغير أنف ولا ذنب ، بل ما يمنعها أن تعيش برؤوس كثيرة جداً . وذلك يسير . يقال أن التعديل الوزارى قريب فليصبح أعضاء الهيئة السياسية كلهم وزراء ، ولتعش وزارتنا بعشرين

رأساً لا برأسين اثنين ، ذلك أجدر أن يضحك المصريين وما أشد حاجة المصريين إلى أن يضحكوا في هذه الأيام .!

طه حسين

البلاغ ، ٧ فبراير ١٩٤٦ .